القسم الثالث

نسمات البوسفور

مدارسنا كما أتخيَّلها

أعشق التفكير في المدرسة والقسم، وفي التلميذ والمدرِّس إلى حدِّ الحلول والذوبان الكليّ فيها وبها؛ حتى لكأنَّ الدنيا مدرسةٌ عملاقة، والمدرسةَ عالمٌ لامتناهٍ؛ وأتخيَّل أنَّ أصغر جزيء في خلايا مخِّي يتغنّى بالعلم والعلماء، ويصدح بنشيد المعلِّمين والمتعلِّمين؛ غير أنَّ ضجيج الحياة، وفوضى المكان والزمان، تحرماني من سماع تلكم الأنغام الفردوسية بأُذُنيَّ هاتين.

ولقد واللهِ وجدتُني أعانق السماء سرورًا وفرحًا، وأحيِّي الشموس والكواكب والنجوم تحية الجنديِّ الوفيِّ، وأنا أقرأ عبارةً للمجدِّد "فتح الله"، أهديها لكلِّ مرابط في حصن التربية مؤمِنًا مجتهدًا مجاهدًا، فلتتقبلوها مني غضَّة طريَّة، رطبة بنسيم البوسفور البكوريّ، يقول:

"تمرُّ المدارس في خيالي في العيد وقد أصبحت مختبرات لحلِّ أسرار الكون وطلاسمه، حيث أرى هناك أساتذة عمالقة يهيئون طلابهم لفكّ أسرار ما وراء السماوات، أساتذةً ترى الوضاءة في وجوههم، والإخلاص في قلوبهم، والاستقامة في تفكيرهم".

هكذا، فلتكونوا.

الصلاة... الصلاة...

لكَم ركَّز الواحد منَّا في حياته على منجزاته، واهتمَّ بما يحقِّقه من شهرة أو مال أو حظوة، وقد يكون كلُّ ذلك في حلال لا غبار عليه؛ غير أنَّ إدمان الطرْق على باب الأسباب القريبة قد تبعث على الإعراض عن الأسباب البعيدة، أو الغفلة عنها؛ ومِن تلكم الأسباب العميقة: "الصلاة".

فإضافة إلى ما ورد فيها من معانٍ، لا تستوعب مداها دفاترُ تملأ ما بين السماء والأرض؛ يمكن أن ننبّه كلَّ واحد منَّا، ونهمس في أذنه بهدوء واهتمام، ونقول:

"أخي، تيقَّن أنَّ صلاتك نجاحَك، وأنَّ سرَّ ما أنت عليه، وسرَّ حالِ دراستك، أو صناعتك، أو تجارتك، أو فلاحتك... ممتدٌّ بسبب إلى صلاتك؛ فإن أنت أقمتَها استقامت، وإن أنت ضيَّعتها ضاعت.. ولا يغُرَّنك الغثاء والوهم والسراب والكثرة والقيل والقال... ولا يستخفنَّك أنك أنجزت كذا وكذا، وجمعت كيت وكيت.. فكلُّ ذلك إن لم يسعدك دنيًا وآخرةً، كان لك غصَّة وندامةَ، ولو بعد حين.

فالصلاة الصلاة إخوتي، تُفلحوا وتربحوا، وتَسعدوا وتُسعِدوا".

الجيل الكونيُّ آت...

هاتفني الليلةَ، وزفَّ إليَّ بشرى نادرةً زمرديةً، لا أبيعها بمتاع الدنيا كلِّها؛ وهي أنَّ جامعة "فاتح" الذائعة الصيت، قد رشَّحته لمنحةٍ في بلاد من بلاد الغرب، ذلك أنه كان ضمن "الأوائل"، ثم اجتاز اختبار الترشح للمنحة بامتياز.

فسألتُ عن اسمه، واسَّارع الجواب: محمد.

وعن جنسيته، فقال المبشِّر: جزائرية.

وعن مجموعه وجماعته، فأجِبت: خلائف الخير، وكلُّ واحد منهم جبلٌ بمفرده.

ثم تداعت الصور، وجالت الخواطر. فناديتُ بأعلى صوتي:

"إنَّه هو... الجيلُ الكونيُّ آتٍ... وغدُ البلاد -بحول الله- شامخ شموخ شجرة الدلب... وهو يعي أنَّ ذلك لن يكون بالأحلام والأوهام، ولا بصناعة الفراغ، ولا بالغوغائية والادعائية... وإنما يتحقق بالفكر والفعل... بالعلم والعمل... بالتخطيط والإتقان... بالهمَّة التي لا تكلُّ ولا تتوانى.

فهؤلاء الخلائف إنَّما يعبرون من الأرض نحو السماء، عبور المسافر على الجسر المعلَّق؛ ويتعلقون بالجوزاء، تعلُّق "الفاتح" بالبشارة الطيبة المباركة من سيد الأنبياء ﷺ: «نعْم الأميرُ أميرها».. فإن يكن "الفاتح" قد أدرك المبتغى بفتح القسنطينية، فإنَّ هؤلاء سيتجاوزون الزمان والمكان، وسوف يفتحون، بفضل الله، مغاليق الإلحاد وحصون الظلام؛ وحينها فقط، سيغرِزون عَلَما على رأس ربْوة السعادة، كتب عليه "الجيل الكونيِّ آت.. الجيل الكوني آت"...

وجهان... وقلبان!

كلَّما تنفس الصبح، وكلَّما أرسلت الشمس أشعّتها الذهبية، فُتّحت العيون جميعُها.. فهل تُرى، ماذا تَرى؟ ترى وجوهًا مسفرة، وأخرى عليها غبرة... وترى وجوهًا ناضرة، وأخرى باسرة. المئات أو الآلاف من البشر يقفزون إلى أعينك يوميًّا، سواء مِن حقيقة الحياة، في البيت والشارع والمدرسة... أم من العالَم الافتراضي، في المجلة والتلفاز والإنترنت.

وكلُّ وجه يترك فيك أثرا، دقَّ أو كبر.. ولا شكَّ أنَّ المبتسم، الضاحك، المستبشر، البشوش، المتفائل... يفتح مغاليق قلبك، وينقلك عبر جسر ملائكيٍّ نحو المستقبل، فيفتح أمامك فُرصًا وأفكارًا وإنجازات... ويدفعك لاجتراح الخيرات والمبرَّات والطاعات... ليكون لك شريكًا في كلِّ نسمةٍ وحركة وسكنة؛ فتحمد غبَّه، وترجو ودَّه، وتدعو الله له بالقبول. أمَّا الآخر -ويا حسرتي على الآخر- فـ"يكفي بالشرِّ سماعُه"، ولا أزيد.

وإنما أنا سائل وجهي ابتداءً، ومسائلٌ وجه كلٍّ منَّا تباعًا: "هل أنت من الصنف الوضَّاء، وبخاصَّة ساعة الصبح الأولى؟ أم أنَّك ممن لا ينشرح ولا يهلِّل إلاَّ لنفع، أو مصلحة... ثم ما يلبث أن يعود إلى جحره، ويلقي سحابة من الرماد على جبينه؟".

على كلٍّ، وجهُك دليل قلبك، وصفحةُ روحك، وعنوانُ سريرتك... فانظر ماذا أنت فاعلٌ فيه، وتذكَّر دومًا وجه سليمان عليه السلام الأبرَّ ومقولته، وهو يستقبل نملة: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾(النَّمْل:١٩).

ماذا... وماذا... ثم ماذا؟

قد يبدو السؤال غريبًا وساذجًا لبداهته، لكن لو حمَّلناه السياق الذي يطرح فيه، ولو اكتشفنا الغاية التي يصبو نحوها، لتحوَّل السؤال إلى بحث جدير وبديع. وكلُّ قارئ لو توقَّف برهة، وكرَّر السؤال على نفسه مرَّات ومرَّات، لوجد أنه في أشدِّ الحاجة إليه، بل قد يكون خلاصه وملاذه وسرّ سعادته، وسبب حركته وسكونه، مبعثه الجواب الصواب على هذا السؤال القديم الجديد.

فمثلاً، نحن نعلم ونوقن -إن شاء الله- أنَّ ثمة إله، هو سبب للأسباب، وحقيقة للحقائق، وعين للحكمة.. ولكن ماذا عن علاقتنا به؟ وماذا عن علاقته بنا؟ وماذا يمثل سبحانه من قَدَر في قلوبنا الفارغة فراغَ فؤاد أمِّ موسى عليه السلام؟ وماذا فعلنا فيما أمرَنا به جلَّ جلاله، وفيما نهانا عنه، على الإجمال والقصد لا على الاختزال والحرفية واللفظ؟ ثم، ماذا نكون في حقه تعالى؟ مَرضيِّين! فواسعدنا؟. أم غير ذلك، فواحسرتنا؟ وماذا أعدَّ لنا الكريم يوم اللقاء؟...

ماذا... وماذا... ثم ماذا؟

إلى أن نجد الجواب الحق، ونعضَّ عليه بالنواجذ، ولا نبالي... السؤال أخي، ليس فلسفيًّا عامًّا، ولكنه توحيدي خاص... بي وبك... فلنعتبر جميعًا...

كيف... وكيف... ثم كيف؟

كثيرًا ما اختلف الناس في الكيفية، وهم مجمعون على الماهية؛ فما أيسر أن تدعو شابًّا مقبلاً على الصلاة -مثلاً- إلى الخشوع، وتزجره إذا لم يخشع، ثم تشرح له بسطحية دلالة الخشوع، وما يردِّده الناس عن الخشوع، بلا وعي... فإذا ما طَلب منك -وهو الحدَث الغرُّ- بيان الكيفية، وشرْحَ الأسباب الفاعلة، وتدقيقَ المعاني الخفية، والتدريب على كلِّ ذلك... تعللت بالأهمية، واكتفيت، ثم انصرفت إلى أمر آخر... وهكذا!

فما أكثر المواضيع التي نتناولها وعظًا، ولا نشرح للناس كيفية التطبيق، ولا آلية التغيير، ولا وسيلة الإصلاح، فنبقيهم حيارى بين اعتقادهم وقدرتهم؟!

ولنقل مثل هذا فيما حَلُّه وسرُّ التغيير فيه يكمن في الصناعة، وفي الإجراءات الفنية، بعد بيان الحكم الشرعيّ طبعًا؛ مِن مثل ضربِ المرأة كعبها على الأرض، فإذا ما ذهبتْ رفقة زوجها إلى دكَّان الأحذية، ونقَّبت عن حذاء واحد محترَم لا يُحدث صوتًا إذا احتك بالأرض لم تجد... والصانع المسلم -مع ذلك- يردِّد الصدى، وينقل ما أبدِع في غير محيطه، ويستورد ما أعِدَّ لغير سِربه.

فلنهتمَّ بالكيفية بعد الماهية، ولا نعتبر ذلك مجرَّد جزئية، وكفى!

فنُّ مقاومة الرياح العاتيات

ما أشدَّ الرياح العاصفة اليومَ على الأفراد والمجتمعات؛ فهي تهبُّ من كلِّ جانب، ولا تذر أخضر ولا يابسًا إلاَّ أتت عليه وجعلته كالرميم.. وفي مثل هذه الأحوال، على العاقل أن يتعلَّم كيف يقاومها، بحكمة وحنكة، دون أن يتنازل عن مبادئه وقيمه شرو نقير.. ولقد -واللهِ- علَّمنا المصطفى هذا الفنَّ: "فنُّ مقاومة الرياح العاتيات"، وهو الخبير الحليم، الذي وقف شامخًا أمام جميع العواصف، وخرج منها سالمًا، بل منتصرًا.

قال ﷺ: «مثلُ المؤمن، مثل خامة الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها؛ فإذا سكنت اعتدل. قال: وكذلك المؤمن يُكفأ بالبلاء».

نعم، يا حبيبي، يا معدن الحقيقة، ويا نور الوجود، يا رسول الله... ومَا مثلُ غيرِ المؤمن؟

قال ﷺ: «ومثل الكافر كمثل الأرزَّة، صمَّاء معتدلة، حتى يقصمها الله إذا شاء» (رواه البخاري).

لقد وعيتُ الدرس يا معلِّمي، وفهمتُ المعنى يا مرشدي، وأدركت المغزى يا إمامي؛ وكلُّ دعائي أن يرشدني الله حتى أحوِّل هذا النور السرمديَّ إلى واقع عمليّ، وإلى حركية يومية، وأن لا أحبسه رهين أفكاري الدونية، وقناعاتي الدنية...

آمين... آمين.

روضة الورد

هو كتاب رائع جميل، لشاعر فارسي فحل هو: "سعد الشيرازي"؛ ولقد نبهني إليه صديق لي يتقن الفارسية ويستمتع بها؛ ويقول لي: "إنَّ مَن قرأ الشعر بالفارسية سُحر!". ومن نعمةٍ أني حمَّلت الكتاب من الأنترنت، وصعقتني الفاتحة المشحونة معنًى، وبهرني حسنُ الاستهلال المحمَّل حكمةً وحكمًا، قال لا فضَّ فوه:

"المِنَّة لله ﷻ، الذي طاعته توجب التقرُّب منه، وبشكره تزداد النعم. كلُّ نفَس واردٍ مَدَدٌ للحياة، وكلُّ نفَس صادرٍ راحةٌ للذَّات؛ إذن في كلِّ نفَس له عليكَ نعمتان، على كلِّ نعمة منهما شكر واجب".

فطاعة ربي وسؤالُه والحاجة إليه لا تزيدني ذُلاًّ، شأن غيره من المطلوبين الذي يتلذّذون بحاجة الناس، ويمنُّون ويستكثرون؛ حتى يجد السائل أنه صار مكبَّلاً وسجينًا للنعمة والمنعم؛ أمَّا الكريم المنّان، فلا يزيده تذلّلي إليه إلاَّ حُبًّا لي ورعاية، ولا يزيدني سِوى تقربًا منه ورفعة.. سبحانه... ثم ماذا؟

ثم إنَّ أنفاسي في ورودها هي "مددٌ للحياة"، وحين صدورها هي "راحة للذات"؛ ألا يجمُل بي أن أشكره كلَّ شهقة وكلَّ زفرة؟!

طبعًا، الحمد لله، والشكر له وحده... ولا أملك الكلمات التي أشرح بها هذا المعنى العميق، فليتأمّله كلُّ عاقل، وليَقِسْه بنفْسه ونفَسه، ما دامت الفرصة مواتية، وفي العمر نَسيٌّ.

الإيمان بالآخرة

هي عبارةٌ على قصرها، ترسم الخطَّ الفاصل بين السعادة والشقاء، بين الصبر والضَّجَر، بين الفوز والخسارة.. فالقاعدة -خلافَ بعض المعايير الضحلة- أنَّ كلَّ مؤمنٍ بالآخرة سعيدٌ، وكلَّ كافر بها شقيٌّ ضرورةً؛ فلا سعادة خارج هذا الإيمان، ولا شقاء مع ذلكم الإيمان.

قد يقول قائل:

"وأين الإيمان بالله تعالى، وبالرسل... وغيرها من أركان الإيمان؟"

لكني أقول:

"لا تعارُض، فكلُّ أولئك أوجه لعملة واحدة، لا تنفصل ولا تنفصم"...

وقد يعترض معترض بأنَّ في الدنيا سعداء لا يؤمنون بالآخرة، فيجاب عنه:

"فقط ارمق خائنةَ أعينهم، وتأمَّل خلجات قلوبهم، واكتشف أسرار حياتهم... تجد أنَّ سعادتهم تلك لا تعدو أن تكون مساحيق ظرفية، لا تقف لنوائب الزمان، فلا تغرَّنك المظاهر"...

واقرأ معي أخي، ثم تمثَّل، قول بديع الزمان النورسي رحمه الله:

"أتحَمَّل كلَّ هذا الحزن والأسى، بذلك الإيمان بالآخرة، رغم أنني ما كنت أتحمّل أيّة إهانة وتحكّم من أيّ أحد مهما كان.. إنَّ نور الإيمان بالآخرة وقوّته قد منحني صبرا وجَلَدا وعزاءَ وتسلية وصلابة وشوقا للفوز بثواب جهاد عظيم".

الحمد لا المدح

لولا الفهم لضاق الفكر، ولولا الفكر لساء الفعل، ولولا الفعل لتهارج الناس؛ وفي كلٍّ يجب أن نحسن، فإذا فهمنا فلنضبط الفهم، وإذا فكَّرنا فلنعمِّق الفكر، وإذا فعلنا فلنتقن الفعل.. وما أبلغ المتنبي في قوله:

وكم من عائب قولا صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
ولكن تأخذ الآذان منه على قدر القريحة والفُهوم

فالقول الصحيح، بل أصحُّ القول ما جاء على لسان المصطفى ﷺ من قرآن كريم، ومن بيان شريف، قال ناهيًا، وكلنا آذان له: «احْثوا التراب في وجوه المدَّاحين»، ثم قال ناصحًا، أكرمنا الله بشفاعته: «من لم يحمد الناس لم يحمد الله؟».

إنَّ الفهم السقيم لهذين الحديثين قد يخلط المعاني، ويهدم المباني؛ فكيف نُنهى عن المدح، ثم نؤمر بالحمد؟ أليس المدح -في مذهب الناس- مرادفًا للحمد؟

نعم هما كذلك، لمن لم يعِ، ولم يدرك، ولم يحقِّق، ولم يسأل؛ أمَّا عند التحقيق، فنقرأ: "إنَّ المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أمَّا الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان". وأمَّا الحمد فحاصل من المحاسن في الصفات أو الفعل، فلا يُحمد مَن ليس في صفاته ما يستحق الحمد، ولا يُحمد مَن لم يفعل جميلاً! أمَّا المدح، فقد يكون قبل ذلك، وقد يكون لغير ذلك.

من هنا، كان الحمد حسنةً، لأنه يلتفت إلى الصفات والأفعال، أمَّا

المدح فهو متعلق بالمصالح، وبالمظاهر، وبالمطامع، وبالمناصب... فالمادح معتقدٌ الأسباب في ذات الممدوح، وغافلٌ عن ربِّ الأرباب؛ ولذا حقَّ لنا أن نحثو التراب على وجهه، فوجهه لم يعد محلَّ حمد، لصفاته القبيحة التي خدشته...

فلنحمد الناس، ولنقلع عن المدح، ترتفع عنا آفة سوء الفهم، ويزل منا سقم المعنى، وننلْ بذلك رضا الله تعالى، وشفاعةَ نبيّه الحبيب ﷺ.

الرجل الجبل

دأب الناس ضمن "وعائنا الحضاري" غالبًا، على الافتخار بمن مضى، والنظر إلى "العالِم النحرير" الذي غادرَنا بنظرةِ التقدير والتبجيل، وأحيانًا بنظرة التقديس المتجاوَز؛ أمَّا الذي يكون بيننا: يطعم مطعمنا، ويلبس ملبسنا، ويمشي في أسواقنا، فهو فقط: مشتغلٌ بالعلم، وهو مجرَّد "أستاذ"، أو على أكثر تقدير هو "محطُّ اهتمام لدروس رمضان، ولمحاضرات الملتقيات".

والحقُّ أنَّ بيننا اليومَ علماء لهم شأنهم، وفطاحل لهم شأوهم؛ يقدِرهم القاصي حقَّ قدرهم، ويغفل الداني فيجرِّحهم؛ وقد يتبجح الطالب المبتدئ، فيدَّعي أنه "أعلم منهم"؛ إنهم "لا شيء" وهو "كلُّ شيء".

ولقد كتبتُ عن الحمد، فوددت لو حمدت، ولا أبالي، ورجوت لو تعبدت الله بهذه "العبادة المهجورة" إلا نادرًا؛ فوقعتُ على كلمة لعالم عامل، ولرجل شهم: هو نسيج وحده، وهو مدرسة بكلِّه وبجميعه، قبل قوله وحَرفه؛ فقلت: "ألا يحقّ لي أن أبلغها للناس كما بلغتني"، حتى يكثر "فريق الحمد"، وننال الأجر موفورا، فنقدر "الرجل الجبل"، ومن على شاكلته، حقَّ قدرهم!.

أجل، قال أستاذي محطُّ الكلام، ومقصد المعنى[1] -أدام الله برَّه- ناصحًا لنا جميعًا: "امض أخي في نهجك، وسِرْ في دربك، وامش في طريقك، وتقدّمْ إلى أهدافك، وامدُدْ في حبال آمالك، وتوسّع في دوائر

---

[1] هو الدكتور الكريم، أستاذ: محمد ناصر بوحجام.

نشاطك، وعدّد في فضاءات تحرّكاتك... اعمل ولا تخف عصف ريح، وانهض ولا تخشَ خسف أرض، أُعلُ إلى طبقات السّماء ولا تنظر إلى من يقبع في الغبراء. عزمتَ على العمل، وتعلّقت بالأمل، فادأب إلى يوم الأجل، فالله يكون مُعينَك في مشوارك، مادام اليقين بالله مَعينَك في بدارك".

أتخشى على بناتي الفقر؟!

"بعدَ مُضيّ عدة أيام من مرض ابن مسعود ﷺ الذي كان من أوائل المسلمين، والذي كان من أبرز طلاّب مدرسة رسول الله ﷺ، فاجأه عثمان ابن عفان ﷺ الذي لازم رسول الله ﷺ، وصلّى معه إلى القِبلتيْن، وشهِد معه معظم المشاهد- عائدًا وقال له:

- ما تشتكي؟

- ذُنوبي.

- فما تشتهي؟

- رحمة ربي.

- ألا آمر لك بطبيب؟

- الطبيب أمرضني.

- ألا آمر لك بعطائك؟ (وكان قد تركه سنتيْن)

- لا حاجة لي فيه.

- يكون لِبناتِك من بعدك؟!.

- أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أَمَرتُ بناتي أن يقرأن كلَّ ليلةٍ سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كلَّ ليلة لم تصبْه فاقة أبدًا"، وتُوفي ابن مسعود ﷺ» (رواه البيهقي).

تُرى، مَن مِن الناس اليوم يحمل بين جَنبيْه قلبًا خفَّاقًا باليقين، كقلب ابن مسعود ﷺ، وهو الذي حوى من العلم ما لم يحوه غيره، وروى من الحديث الكثير، ولازم رسولنا الكريم ثلاثًا وعشرين عامًا؟!.

بوبال... الرؤيا الصالحة

في بيت يحفُّه الأنس، ويجلِّله الوقار...يصبغه الإيمان المكين، ويجمِّله الفكر الرصين... ضمن وفدٍ من "الأكاديميا" و"مجلة حراء"، بمناسبة مؤتمر "ونحن نبني حضارتنا" في الرباط... وأنا جالس القرفصاء، سلَّمت نسخة من رواية "بوبال" لأستاذي الكريم، صاحب البيت العامر، العالم المفكِّر الدكتور أحمد عبادي؛ فتناولها من يدي، ثم بدت عليه أمارات الحيرة، فشرع يردِّد بخشوع، مرَّات ومرَّات: "سبحان الله... سبحان الله... سبحان الله...".

ولما سألته بعد أمدٍ، عن تأويل ردَّة فعْله عند استلام "بوبال"؛ قال لي: "منذ مدَّة قصيرة، رأيت في المنام أني أصلّي في بوبال، في مسجد جميل، لا تزال صورته ماثلة أمامي اللحظة... ولم أكن أعرف بوبال، بل كنت أعرفها باسم مغاير؛ فلمَّا كان الصباح، أخذت أبحث في الإنترنت، فاطّلعت على تفاصيل كارثة الغازات... ولم أجد تفسيرا لما رأيت... إلى أن جئتَ على قدرٍ، وسلَّمت لي هذه الرواية، في هذا الموكب الحبيب، وأنا عازم أن لا أنام اليوم حتى أتمَّ قراءتها... سبحان الله... سبحان الله... سبحان الله".

من جهتي، امتلكتني الخشية، وغمرتني الطمأنينة، وتيقَّنت أنَّ لـ"بوبال" شأنا آخر، لعلَّ الرواية تكون منبّها له، ومقدِّمة إليه... مجرَّد منبِّه... لهذا الشأن.

ألقيت تحيتي لمحمد يونس، الذي هو أنا، وأنت، وهو... وها هو اليوم يتمثَّل في شخص أستاذنا، من المغرب العزيز: الدكتور أحمد عبادي...

فسلام عليه... وسلام على بوبال... والله أن نسأل أن يجعلها "رؤيا صادقة": "يراها العبد الصالح، أو تُرى له!"... آمين.

إلهي، حمدي لك يستوجب حمدًا

عقدتُ العزم أن أناجي ربي شاكرًا، وأوالي الحمد له معترفًا، وأستغفره عن قصوري في "مقام الشكر والحمد"، وعن فرط غفلتي في الاعتراف بأفضاله وفواضله؛ فوقعتُ على "مناجاة الشاكرين" للإمام الحسين بن علي ﷺ، وألفيتها وافيةً مستوفيةً، بديعةً ملهمةً؛ ولم أجد سبيلاً إلاَّ أن أهدي بعض ما فيها للأحبة، أداءً للحمد بالأركان، وحقيقتها أنها أداء للشكر بالجنان، وباللسان... فليقبلها مني كلُّ مخلص صادق، عربون حبٍّ ووفاء:

"إِلهِي أَذْهَلَنِي عَنْ إِقامَةِ شُكْرِكَ تَتابُعُ طَوْلِكَ، وَأَعْجَزَنِي عَنْ إِحْصاءِ ثَنائِكَ فَيْضُ فَضْلِكَ، وَشَغَلَنِي عَنْ ذِكْرِ مَحامِدِكَ تَرادُفُ عَوائِدِكَ، وَأَعْيانِي عَنْ نَشْرِ عَوارِفِكَ تَوالِي أَيادِيكَ... وَهذا مَقامُ مَنِ اعْتَرَفَ بِسُبُوغِ النَّعْماءِ وَقابَلَهَا بِالتَّقْصِيرِ، وَشَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِالآمَالِ وَالتَّضْيِيعِ... وَأَنْتَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمِ البَرُّ الكَرِيمُ...".

إلهي، حمدي لك يستوجب حمدًا، وشكري لك يستتبع شكرًا... فحمدًا لك على نعمة الحمد... وشكرًا لك على نعمة الشكر... يا حميد يا شكور... لك الحمد ولك الشكر... حتى ترضى.

"بطن جائعٌ، ووجه مدهون"

هو مَثلٌ عربيٌّ، يضرَب للمتشبِّع زورًا، وله نظائر في الدارجة الجزائرية، منها قولهم: "الزَّلْتْ والتفَرْعِينْ"، أي الفقر حين يجتمع مع الفرعنة.. ولعلّي أبغي من وراء هذا المعنى أن ألمح إلى خطر يداهمنا فرادى وجماعات، بل ينخر عظامنا مؤسسات وحكومات؛ وذلك بالاشتغال بالمظهر الخارجيّ، والإنفاق على المساحيق، والانخداع بالمظاهر والشكليات، وإعطاء القيمة للشكل على حساب المحتوى، وتقييم المزيَّف والتنكُّر للمؤصَّل... وإلاَّ، فما الذي يبرِّر البرامج الفولكورية، بل والمؤتمرات والملتقيات والمناسبات... الفارغة، ولا فراغ فؤاد أمّ موسى.

مهلاً أخيَّ، لا تستعجلْ، قبل أن نتحدَّث عن مشكلة "التشبُّع بالزور"، وعن آفة "المظهرية"، و"الحرفية" في مستوياتها الكبرى، تعالَ نجلس ساعةً، ونقوِّم تصرُّفاتنا الفردية، واحدةً واحدةً: من داخل منازلنا، إلى علاقاتنا بالأجهزة، إلى تصرفاتنا تجاه الناس، إلى مشاريعنا التربوية.. إلخ.

لعلَّ الوباء قد انتقل من الخاص إلى العام، أو أنه نزل من العام إلى الخاص... هذا لا يعنينا في شيء.. وإنما الواجب هو أن نصدُق، ونولي الأولويةَ لما له أولوية، ونتقي الله فيما نأتي وما نذر... وأن لا يصدُق فينا المثل السائر: "بطْنٌ جائعٌ ووَجْهٌ مدهونٌ!"...

نعم العدلان، ونعمت العلاوة

سمع سيدنا عمر ﷺ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٧)، فقال: "نِعم العدلان" أي الصلواتُ والرحمة؛ "ونعمت العلاوة" أي الهدايةُ.

لكن، العدلان والعلاوة هي جائزة مَن؟ حتى نعمل على استنزالها، ونفوز بحَول الله بها؟

الجواب: أنها لمن صبر على الابتلاء، وهي لمن يقول حين المصيبة، مؤمنًا موقنًا، خاشعًا متدبرًا، عالمًا عاملاً: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾(البقرة:١٥٦).

وبدورنا نهدي هذه النسمة لمن هو الساعة مبتلًى: ينزل به ألم، أو يعاني من محنة، أو يشتد عليه ضيق ماديٌّ، أو ينوء عليه دين، أو يؤلمه أمر في علاقاته العائلية، أو الوظيفية، أو غيرها... والحاصل أننا نسأل الله أن يفرِّج عنه، وننصحه بالإنابة إلى الحكيم الرحيم، والقيام في جوف الليل، للصلاة، وتلاوة كلام الله، والبكاء لله، حتى تتبلل سجادته... فإنَّ الله تعالى يسمعه... ويفرج عنه يقينًا.

أمَّا ما يثقل كاهل الأمَّة من فتن ومحن، فعلينا جميعًا أن نقف هذا الموقف، ونستغفر لله من ذنوبنا، ونبكي لله حالَنا، حتى نستمطر الشفقة والرحمة، من الحليم الرحيم... غيثًا هامرًا، وسيلاً هادرًا.

اللهم فرّج عنَّا، وعن أمَّتنا... وارزقنا العدلين والعلاوة... آمين.

ميِّت بن نَوْمان!

ابن طفيل عالم فيلسوف، أديب فزيائي، مارس الطبَّ والقضاء والفلك؛ أندلسيٌّ، ولِد بها، ومات بمراكش.. له رواية بعنوان "رسالة حي بن يقظان"، اعتمدها مالك بن نبي في تحليل "الفراغ الكوني"، مقارنا بينها وبين "روبنْسون كروزو" لدنيال ديفو.

انتهيت من إعادة مطالعة "حي بن يقظان"، مرَّة أخرى، بحثًا عن "المعنى"، وعن "الجواب لسؤال الفراغ الكوني"، في إطار تأليف مشروع علمي معرفيٍّ، أصل الثانية بالثانية، والثالثة بالثالثة... في صياغته... سائلاً الله السداد.

لكن، قطع عليَّ حبلَ تفكيري سؤال هو: لمن كتَب ابن طفيل؟ ولمن ألَّف ابن نبي؟ ولمن أخط ما أخطُّ اليوم من أفكار؟

قد لا يعنيني الجواب كثيرًا، غير أني "جُبلت على حبِّ العلم"، ونشِّئت على "احترام الفكر"، وربِّيت على "الإيمان بأنّ المعنى لا يضيع، مهما طال الزمن"... ولا أعرف اليوم، هل استوعبتُ الدرس، أم أني لا أزال أتلمَّس الحقيقة، وأحبو نحو الحقِّ... بنفس متقطع، وخطًا وئيدة!

سؤالي إلى القارئ الحبيب، وإلى نفسي اللوّامة: هل تُغنيك ثقافة "الساندويتش" عن فكر الأمَّة الحقيق؟ وهل تسبيك "الفلاشات" عن زخم العلم الوثيق؟ وهل أصبحنا في غنى عن مصادر المعرفة الرصينة، أعني: الكتابَ المسطور، والكونَ المنظور، والرسول الكريم، والتراث القويم؟!

كلاَّ.. فإن يك حيّ بن يقظان، حامل أوصاف اليقظة والحياة، فإنَّ المجتثَّ من جذوره لا يحمل سوى أوصاف النوم والموت الزعاف، فحقّ لنا أن نسميه إذن "ميِّت بن نَومان"!!!

ناغورنو كاراباخ

"ناغورنو كاراباخ" (Nagorno Karabakh) اسم جديد ينضاف إلى فهرست محن الأمة الإسلامية، في عصرنا هذا، عصر "الظلمات" الاستعمارية الأمبريالية العالمية. "ناغورنو كاراباخ" إقليم يقع بين أذربيجان وأرمينيا، استولت عليه أواخر الثمانينات القوات الأرمينية، مدعومة دوليا، فأبادت حوالي ٢٥ ألف مسلم، وهجَّرت حوالي ١,٢ مليون آذري، لا يزالون يعانون إلى اليوم. لكنَّ الأزمة ليست هذه فقط، وإنما هي أزمة "جهلنا"، إذ ما دام "مصباح الكفِّ" لم يسلَّط إعلاميًّا على أزمة ما، مِن قِبل النظام الدولي، فستبقى هذه الأزمة تحت الظل، يغذِّيها جهلنا، وتغذيها فرقتنا، وتغذيها ذهنياتنا الصبيانية الادعائية الدونكيشوتية.

للعلم فقط، انتشرت ظاهرة الرهان بين الجنود الأرمن، فهم عندما يحصلون على امرأة حامل صيدًا لهم، يتراهنون فيما بينهم، إن كان ما في بطنها ذكر فهذا رابح، وإن كان أنثى، يخسر... ثم يبقرون ذلكم البطن، ويستخرجون ما فيه!

ولقد عالج الأستاذ فتح الله كولن هذه المحنة في مسجد جامع، قبل عقدين، وأوان تحليله لها أغمي عليه، من فرط التأثر والتألم... ولكنه، لم يقف هنا، بل أمر بالعمل المسؤول، وبالهجرات المكثفة، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، وتبرئة الذمة أمام الملك الديان!

ألا ما أقبح العاجز والجاهل، حين يصابان بالغرور! وأقبح منه ادعاء الورع والتقوى، لمن يدور في جغرافيته الضيقة، كحمار الرحى، معتقدًا أن بداية العالم ونهايته لا يمكن إلا أن يكونا تحت رجليه القذرتين.

سؤال الخلق، وسؤال الحقّ

بدأ الجو في مدينة الإسلام يعتدل، وقد ذابت الثلوج، وبسطت الشمس خيوطها الذهبية على السهوب والوهاد؛ فنطق البوسفور، وأنا أرمقه من علٍ، وقد زال الجفاء الذي حلَّ مدَّة بيني وبينه، جفاء يحل عادة بين حبيب وحبيبه، وبين صديق وصديقه... نطق، فسأل:

يا هذا، من أنت؟ ومن تكون؟ وماذا تفعل هنا؟ لماذا هجرتَ بلدك؟ ولماذا تخلَّيت عن مشاريعك؟ أين الصبر في الدعوة؟ أين هي المسؤولية التي تحمَّلتَها؟ ماذا فعلتَ بها؟ وهل أنت هنا سائح منعَّم، والناس هنالك يحترقون ويصبرون؟

طالت سلسلة أسئلته، وتذكَّرت أني سمعت مثلها من بعض الناس، وأني رأيت بعضها على وجوه آخرين، وإن لم يفصحوا عنها، حياء وتأدُّبًا..

ما الجواب، وقد حاصرني هذا النهر العظيم، مثل ملاكم بارع إلى زاوية يستحيل الخروج منها؟ هل سأبرر له؟ وهل سأجمع عددًا من التعلات والحجج، ثم أضربه بها، لعلَّه يسكت أو يرعوي؟

لا، لا شيء من ذلك حدث؛ ذلك أني تذكَّرت يوم الحساب، واستحضرت قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾(طه:١٠٨)، وقلت: ليس سؤال الخلق بشيء أمام سؤال الحقِّ، وليست محاكمة العباد بشيء في مقابل محاكمة ربِّ العباد...

إذن، ما الجواب؟

أقول، لا جواب مني للبشر، واللهُ يعلم ما في السرائر، وهو أعلم بحقيقة الأمر؛ وإنما في خلوتي، وفي قرارة قلبي، وحين سهري، وعند سمري،

وأثناء السحر، وفي كلِّ وقت؛ سأحمل نفسي الأمّارة على الجواب... ولا أزال، ولن أزال.

غير أني أتوجه لكلِّ سائل، حتى إليكَ أيها البوسفور الصدوق؛ فأقول:

هلاَّ سألت نفسك عن نفسك، وهلا استجوبت ذاتك عن ذاتك، ألا ترى أنَّ الناس اعتادوا محاسبة الآخرين، وغفلوا عن محاسبة قلوبهم وعقولهم، ونسوا أن ينظروا إلى أفعالهم وأقوالهم بعين الناقد البصير؟!

أمَّا أنا فقلت:

يا نفس، كفاكِ غرورًا، مَن تكونين؟! ألا ترين كيف قصَّرتِ في كلِّ شيء؟! ألا تنظرين إلى حماقاتك ورعوناتك وأخطائك التي لا حدَّ لها؟

أستغفر الله، تحرَّك الموج قليلاً، واستفقتُ مِن خواطري، الساعة بجواري ترنُّ، وتدعوني للعمل والكتابة، وللتفكر والتفكير، وتذكِّرني بقيام الساعة بغتةً... آه.

فيا ربِّ اغفر لي، وتقبَّل مني، ولا تؤاخذني... آمين يا ربَّ العالمين.

يا نفسُ، تسالبي!

النفسُ مِقدامة، مُحِبَّةٌ للظهور، راغبةٌ في التقدير، مائلةٌ إلى الإثراء، داعيةٌ للتفوُّق... لا تقبل الاحتقار، ولا ترضى باللوم؛ هي دائمًا "موجِبة"، أبدا بارزةٌ، محترقةٌ، متشوِّفةٌ، قلقةٌ، مضطربةٌ... هي هكذا، وهي كما خلقها الربُّ الكريم، أمَّارة، لوَّامة، قلَّما تكون مطمئنّة، راضية مرضية.

يا نفسيَ التي في حَشاي، هلاَّ "تسالبتِ"، وهلا "انتفيتِ"، وهلاَّ بحثتِ عن أرض جرُز فدفنتِ فيها ضعفكِ، وأحقادكِ، وهواجسكِ، وظنونكِ، وتقلُّباتكِ... فعدتِ إليَّ نقيَّةً صافيةً، خاليةً من الأوساخ والأدران، طاهرة مطهَّرة، هادئة ساكنة؟!

يا نفسُ، لِمَ أنت هكذا دوما تعذّبينني، وتمنعينني الهدوء والراحة، وتحرمينني النوم والمتعة؟!

قالت النفسُ، وقد صمتَتْ طويلاً، وصبرتْ فيما يبدو كثيرًا، ولقد قلقت من استجوابي الأرعن:

"يا هذا، بي أنت إنسانٌ؛ لو كنتُ كما هويتَ لما كان لك من فضل على باقي الخلائق؛ بي ستحاسَب، وعلى إثري ستُسأل؛ رحماتُ ربّي تتنزَّل عليكَ وعلى الكون حين تروّدني، كما أنَّ سخطه يحلُّ بالعباد حين تقبّحني؛ فنصيحتي إليكَ أن لا تنصحني باللسان وأن لا تدلّلني، وأن لا تتركني للغفوة والغفلة".

ثم تنهَّدتْ، وقالتْ: "ألم تقرأ قوله جلَّ من قائل: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾(البقرة:٥٤)، ثم قال: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ

الرَّحِيمُ﴾(البقرة:٥٤).

بدت عليها أمارات الحزن والأسف، واغرورقت عيونها دمعًا سخينًا، ثم رفعت هامتها، كأنها تنظر بعيدًا، وقالت: "يا صاحبي، إنني، أنا، نفسُك، بشهوتي وعصياني.. جعلتُك تتمرَّد على المنهج، فقتْلُك لي كفَّارة لذنبك، واعترافٌ منك بالعودة إلى جادَّة الصواب، ودليل منكَ على أنك أعدتني إلى بارئي وخالقي".

أنهتْ نصائحَها، فأمرتُها زاجرًا:

"يا نفسُ، تسالبي، واصغُري، واضمُري، واعلَمي أنك لا شيء... وتعلّقي بربِّ كلِّ شيء، ترجِعي إليه راضية مرضية، وتدخُلي في جنته، وتدخُلي في عباده".

يا نفسُ...!

استدارتْ، ثم ابتعدتْ مني رويدًا رويدًا... حتى اختفت وغابت... واستفقتُ فسمعتُ لساني ينادي ويردِّد بخفُوت:

"يا نفسُ تسالبي... يا نفسُ تسالبي... يا نفسُ تسالبي".

إلهي، اجذبني جذبةً إليك

"إلهي، جودُك على عبادك أطمعني فيكَ... إلهي، خطِيئاتي وذنوبي أيأستْني منك؛ فأزِل يَأسِي، واجذُبني جَذبةً إليكَ حتى لا أرجعَ بعد ذلك إلى غيرِك... إلهي معصِيتي إيَّاك وجَّهتني إلى بابِ كرمِك، وخطيئاتي أمالتني إلى جَنَابِك؛ يا حنَّان يا منَّان، يا غفَّار يا مُنعم".

كلُّ شيء... جميعُ الأشياء... تشدُّني إليها بعنفٍ!

كلُّ الخلائق... جميع المخلوقات... تقبض على تلابيبي بقبضة من حديد!

هوايَ، ماذا أفعل به، وهو هنا، في داخلي، يهمس لي صباح مساء، عند مطلع الفجر وحين الغروب؛ يدعوني إلى "المتعة"، و"الراحة"، و"الزينة"، و"الكسل"، "والجور"، و"المعصية".

الشيطان، يحمل طبلاً ومزمارًا، ويقف إلى جوار هوايَ ونفسيَ الأمَّارة، يُعيد كلَّ كلمة يسمعُها منهما، مع القرع والنفخ، مُكاءً وتصديةً، بالصَّفير وبالتَّصفيق.

حتى علبة الصابون، التي أشتريها لتنقية الملابس، حمَّلوها صورًا فظيعة، أتذكَّر أنها تباع بحانوتٍ جوار مسجد حيِّنا... وحتى الرسالة، التي كنَّا نستلمها بيد ساعي البريد، صرنا اليوم نتلقاها بيد برامج نملكها، ولا نملك سفوحها، وهوامشها، وأعلاها، وأسفلها؛ لأنَّ جميع تلك المساحات ملكٌ خالص للشيطان؛ إلاَّ ما شذَّ، يفعل فيها، وبها، ما يشاء...

نعم، قد أصبرُ أنا، ولقد أحوِّل عيني محملقًا يمنة ويُسرة؛ لكن ما بال الشابِّ المراهق؟! وما مصير مَن لا يتلو آية، ولا يصلي ركعة، مِن أبناء

ملَّتنا؟!

هنا، أقف، وأعترف، مطرقًا رأسي، نادمًا من ذنوبي... فأجدُ الله، مِن هنا ومِن هنالك؛ مِن قريب ومِن بعيد؛ بصوت خافتٍ وبصوت جهورٍ؛ في الصباح وفي المساء؛ عبر آية أو عبر حديث؛ من خلال نعمة أو جراء نقمة... أجد الله -ولقد وجدتُه فعلاً- يدعوني ويناديني، تارة بالتبشير وأخرى بالإنذار... باللطف والرحمة والشفقة، وهو الغالب؛ أو بالعقاب والتأنيب والتحذير، وهو النادر.

قلت، وقد رمضت الفصالُ:

"ويحكَ، إنَّه الله يناديكَ، أتُراك معرِضًا عنه يا أحمق"!

تسمَّرتُ... جمدتُ... تصلَّبتُ... إلاَّ قلبي المحبُّ كان يهفو، وعلى إثره لساني العاشقُ كان يهمس: "إلهي، اجذُبني جَذبةً إليكَ حتى لا أرجعَ بعد ذلك إلى غيرِك... يا ربِّ... يا ربِّ".

فجأةً سكتتُ، ثم انتصبتُ، فوجدتُ ريحا طيبة، وهدوءًا على صفحة البال، ونسمة تغازل القلبَ؛ لكأنَّها، أو لعلَّها، من الجنَّة حقًّا، ومَن يدري؟ يا ربِّ... يا ربِّ... يا حنَّان يا منَّان، يا غفَّار يا مُنعم.

تعلَّم كيف تبيع نفْسَك!

يبدو أنَّ رياح العصر تهبُّ بشدَّة، وأنَّ العديدَ من بني البشر لا يقدر على مقاومتها، ولا على مواجهتها بالانحناء الإراديّ؛ فتراهم يُفتنون في كلِّ عام مرَّة أو مرَّتين؛ إمَّا بشعارات سياسية، أو دعوات اقتصادية، أو خطابات عاطفية، أو مباريات رياضية؛ أو حتى أعمالٍ ومسرحيات وأفلام فنّية ثقافية.

ومن تلكم المَوضات العاتية، تعليم الناس "فنَّ الخضوع، وأدب الخنوع"، وتدريبهم على "طريقة فتح الفم بهدوء ليقولوا: نعم"، وعلى "الابتسامة الباردة التي لا تمتدُّ إلى القلب بصلة"؛ حتى إنَّ بعض الوظائف باتت تحضِّر أصحابها لا ليبيعوا ويتبادلوا المنافع مع الآخرين، لكن ليكونوا هم أنفسهم بضائع، إمَّا بحركات أجسادهم، أو بجمال سحناتهم، أو برشاقة قدِّهم، أو بقوّة عضلاتهم... كلٌّ حسب مؤهلاته وخصائصه.

ولقد ساهمت التربيةُ في كثير من الأحيان في إعداد هؤلاء لسوق "النخاسة" الجديد؛ بل وبعض من العقول الجبارة، والأذهان الذكية، والأمخاخ الموّارة؛ تعدُّ بعناية لتباع إلى جهاتٍ، ولتهجَّر من بلد إلى بلد، بما يشبه عملية نقل العبيد في القديم، وبما يعبر عنه حاليًّا بعملية "الانتحار في مواطن العمل".

ولقد عبّر البعض عن هذه الحال -مستهزئًا ساخرًا، متألمًا متأسفًا- بعبارة دالة، وبأسلوب إنشائي لاذع، فقال ناصحًا من أراد مجاراة ما بعد الحداثة: "تعلَّم كيف تبيع نفسك!". ومع قليل من التحوير والترجمة إلى لغتنا المبسطة، نقول: "تعلم أن لا تكون إنسانًا!".

وهكذا، من لم يتعلم كيف يبيع نفسه لربِّه، اضطرَّ إلى أن يبيع كلَّه لغيره.

ما بعد التشييئ والحوسلة

من تعوّد على لغة "نموذج الرشد"، التي صاغها المفكِّرون الذين ارتضيناهم مراجعَ، بل وأعضاءً في "جماعة علمية" مفترضة؛ فإنَّه يدرك أنَّ مصطلح "التشييئ" يعني عند مالك بن نبي "تحويل الإنسان إلى شيء"، أو "إلى بضاعة".. أمَّا "الحوسلة" عند المسيري فتعني "تحويل الإنسان إلى وسيلة"؛ والمؤدَّى واحد.

وأنا أطالع مقالا لـ"لوسيان سيف"، بعنوان "إنقاذ الجنس البشري، وليس فقط الكرة الأرضية"؛ بدا لي أني اهتديت إلى أنَّ المسألة لا تتوقَّف في هذه المرحلة، بل تتعداها إلى "تشخيص الأشياء"، وبقاموس ابن نبي "تحويل عالم الأشياء إلى عالم الأشخاص"، أو "أنسنة المادة" بعبارة أدق؛ كيف يتم ذلك؟

الإجابة على السؤال الآتي توضِّح المسألة: هل البشرية اليومَ تصنع الأشياء لأجل الإنسان، أم أنها تصنع الإنسان لأجل الأشياء؟

طبعًا، كلُّ متأمِّل، غيرِ منَمَّط الفكر، ولا محنَّط العقل، يدرك أنَّ ما يعرف "بالقوَّة العاملة" اليومَ صارت تعَدُّ بعناية، لا لكي تكون سعيدة، لكن لكي توفِّر الرخاء أكثر، وتضمن الخدمة أكثر، وتنتج السلع أكثر؛ بل وحتى الحروبُ تقاد اليومَ بالبشرِ لأجل توفير المال، والثروة.

لقائل أن يقول: هذا الأمر معروف منذ القدم..! فنجيب أنه نعم كذلك، ولكنَّ الجديد هو أنه تحوَّل إلى صناعة، وإلى استراتيجية، بل حتى إلى نموذج معرفي، ورؤية كونية، ولم يبق في عداد الأخطاء العملية التطبيقية اليسيرة.

وماذا عن العمل؟

الجواب، أنَّ إدراك مثل هذا المفهوم، والتعمُّق في هذه الدلالة، والتحرك وفقها؛ كفيلٌ بأن يجعل المرء يفرّق، وهذا بذاته نوع راقٍ من أنواع العمل، إنه من صنف الوعي، الذي يسبق الفعل... فليتأمل.

العنف الناعم، والعنف الخشن

يطلق البعضُ مصطلح "العنف الناعم" على العنف الذي تمارسه المرأة على الرجل، تحت مسمَّيات كثيرة، منها "المساواة"، و"الديقراطية"، و"الحرية"، وغيرها.. ولكنَّنا في هذه النسمة لا نعني به هذه الدلالة، وإنما المقصود هو هذه الصورة الذهنية:

• رجل قتل رجلاً بمطرقة رماها على رأسه: في أدبيات العصر، يُعرف هذا بالعنف الخشن.

• ورجل آخر قتل رجلاً بيديْن عليهما قُفّازان من حرير، في هدوء، بعدما أسلمه للتخدير، لكأن المقتول لا يحسُّ: هذا يسمِّيه أهل "الأناسة" اليومَ بالعنف الناعم.

وصورة أخرى أكثر شمولية:

• تُستعمر بلاد على رمَّتها، باسم حقوق الإنسان، وحماية الحريات، ويُباد لأجل ذلك الآلاف، بل الملايين؛ هذا "العنف ناعمٌ"، وهو مستساغ نفسيًّا، وإعلاميًّا، بل ولا يسمى في الدوائر الرسمية عنفا أبدًا، وما شأن أمريكا في العراق ببعيد.

• وكلُّ عنف جاء بصيغة أخرى، حتى ولو كانت النتائج والخسائر أقلَّ شناعة، وأخفَّ وطئًا؛ فإنَّ هذا العنف يوسم بـ"العنف الخشن"، وهو مرفوض، ومحارب مِن قبل الجميع.

أين يكمن الخلل؟

طبعًا في "المفاهيم"؛ ذلك أنَّ كلَّ عنف هو عنفٌ وكفى، سواء أكان ناعمًا بقفّازيْن من حرير، أم خشِنًا بمطرقة؛ ولنحذر الانزلاق وراء "حرب

المفاهيم"، التي تجعلنا مشاركين مساهمين، في تقبُّل العنف الناعم؛ شرِسين مندفعين تجاه العنف الخشن.

الصواب أن نحارب كلَّ ظلم وكلَّ عنف، ونقبل كلَّ عدل وكلَّ رحمة؛ وأن لا نقبل بفراغات في "منظومتنا المفهومية"... وإلاَّ فارتقب الساعة.

كوني درَّة!

هي بنت "أبي لهب"، ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾(المسد:١)؛ وهي بنت أم جميل بنت حرب ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾(المسد:٤)، وهي أخت عتيبة الذي دعا عليه رسول الله ﷺ: «اللهم سلِّط عليه كلبا من كلابك»؛ وما كان لدعاء رسول الله ﷺ أن يردَّ.

غير أنها تحدَّت الجميع، وتحدَّت جميع الظروف، فأعلنت الشهادتين، وحسُن إسلامها، ثم هاجرت إلى المدينة... فتزوجها -منَّة من الله وفضلاً- الصحابيُّ الجليل دِحية الكلبيُّ، الذي كان من أجمل الناس طلعة، وكان جبريل عليه السلام يأتي رسول الله على صورته... ثم هي أحبّت عائشة أمَّ المؤمنين، ولازمتها، وأخذت منها العلم، وروت الحديث.

أختي الكريمة العزيزة، كوني درَّة، وتأمَّلي ما كانت عليه وما آلت إليه؛ فأسباب التوفيق والهداية إذن هي "ذاتية"، هي من "نفسكِ" ومن "ذاتكِ"، وليست من الخارج، ولا من الآخرين؛ فلا تلوذي إلى التعلاَّت، ولا إلى التبرير بأيِّ سبب آخر، مهما بدا قاهرًا؛ ذلك أنه لن يكون أبدًا أسوأ من حال درَّة، ومن حال امرأة فرعون.

لا تحتجَّ أخي "إياكَ أعني واسمعي يا جارة"؛ فكن دحية الكلبي، أو أيَّ صحابيٍّ شئت، ذلك أنَّ ﴿الَّذِينَ مَعَهُ﴾ عليه الصلاة والسلام، رجالا ونساء، جميعُهم يبتغي ﴿فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾، وكلهم وعَدَهم الله ﷻ، وعظم فضله:﴿مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

الدودة الألفية، والذي تفلسف...

التقت ضفدعةٌ دودةً ألفية تسمَّى في تركيا "ذات الأربعين رجْلا" فقالت لها: "عندما تمشين، في أيِّ اتجاه وبأيِّ منطق تحرّكين أرجلك الكثيرة؟!" دخلت الدودةُ جحرها، وبقيت تفكِّر مهمومة، فأطالت التفكير؛ ولما أرادت المشي استحضرت السؤال، فحاولت أن تحرِّك أرجلها بمنطق عقلها، فاختلط عليها الأمر، وتداخلت الأرجل، ولم تقْدر على السير، حتى ماتت!

هذا المثل يساق لتحليل العلاقة بين الفكر والفعل؛ فرغم أنَّ كلَّ فعل ينبغي أن يصدر عن تفكير وروية، لكنَّ الأفعال البديهية، اليومية، الاعتيادية، المألوفة، ينبغي أن لا نشغل العقل بها، إذ يكفي أن نأتيها كما اعتدنا وكفى؛ ثم نوفّر طاقة العقل لغير المألوف، وللجديد، وللصعب، ولما يجب فيه التفكير حقًّا.

ويشبه هذا المثل مثلاً عربيًّا آخر، يقول: "تفلْسف الحمار، فمات جوعًا"، ومورد المثل:

"كان هناك حمار يمشي في الطريق، وقد أنهكه التعب والعطش والجوع، وبعد مدة من السير وجد على اليمين العشب وعلى اليسار الماء، فذهب ناحية اليمين ليأكل العشب، فقال لنفسه بأنه عطشٌ جدًّا جدًّا، ولما أراد الذهاب ناحية اليسار لشرب الماء قال لنفسه بأنه جائعٌ جدًّا جدًّا، وبقي على هذه الحال حتى مات".

أخي، فكّرْ، ثم اعمل؛ واعمل، وأنت تفكِّر؛ لكن لا تكن مثل "الدودة الألفية"، ولا مثل "الذي تفلسف"... فمات!.

صوامع المرابطين

أن أكون مؤمنًا راشدًا، عالمًا عاملاً شيءٌ؛ وأن أكون مؤمنًا ساكنًا، داعيًا عاطلاً شيء آخر.

فالإيمان بالمفهوم الثاني قد يحقق السعادة لصاحبه آخرةً، وأمرهُ إلى الله؛ ولكنه -للأسف- لا يقدِّم ولا يؤخّر في واقع الأمَّة، ولا في مصيرها، بل هو أحد أشدِّ أعراض المرض فتكًا في تاريخنا.. ومثال ذلك "جبل العُبّاد" الذي لجأ إليه الزهاد، بعيد سقوط الدولة الرستمية. وكذا "صوامع المرابطين" التي لجأ إليها النُّسّاك منذ عهد ابن خلدون.

أمَّا الإيمان بالمفهوم الأوَّل، فهو الإيمان الكامل، الذي يحقِّق السعادتين، ويضمن الجنّتين، ليس للفرد فقط، لكن للأمَّة ولعيال الله ولخلقه، بل للكون جميعه.. وأروع مثال لذلك هو العهد النبوي، وكذا الخلافة الراشدة؛ ومن آخر نماذجه "علي عزّت بيجوفيتش" رحمه الله، الذي أقام دولة إسلامية في قلب أوروبا، وهو يعاني من غدر الشرق، وكيد الغرب، على السواء... فما أضرَّه ذلك أن يكون "المؤمن، العالم، العامل، الراشد" بجدارة.

أما آن لنا أن نصطلح مع إيماننا الشموليّ، وأن نصلح مفاهيمنا ورؤانا الكلّية!

أخي أنتظر منك الجواب!

ما طبيعة هذا الكون الذي نعيش فيه؟ وما هي بنيته العامة؟ هل في قوام هذا الكون عنصر دائم؟ كيف ننتمي إلى هذا الكون؟ وأيَّ موقع نحتلُّه منه؟ وأيَّ نوع من السلوك يتلاءم مع هذا الموقع الذي نشغله؟ وما حقيقة الإنسان؟ وما هي مصادر الحقِّ والصواب؟ ومن أين ينشأ الخطأ والانحراف؟ وما هي معايير الخير؟ وكيف نفرقه عن الشر؟ ومن يحدد هذه المعايير والمقاييس؟... إلخ.

هي أسئلة مشتركة بين الدين والفلسفة والشعر، وهي مطروحة بشكل مفتوح ودائم على كلِّ عقل، ولكلِّ إنسان جواب أو أجوبة عليها، بطريقة أو بأخرى؛ سواء أدرك ذلك أم لم يدرك، عرف أم لم يعرف. وإن تصرفاته وأقواله ومواقفه لتفضح أجوبته شاء أم أبى.

أخي، أختي، أيها القارئ، لا تدع عقلك يكسل، ولا تقبل من فكرك أن يذوب في أجوبة محفوظة موروثة، أو منقولة مصوَّرة فوتوغرافيا؛ لكن أعمِل عقلك، وفكِّر، وأجهد ذهنك، واعلم أنَّك مسؤول وقادر، ولديك مصادر تنير لك المنهج، على رأسها كلام الله تعالى، وسنّة نبيه المصطفى ﷺ، والتراث والفكر الإسلامي بخاصة، والإنساني بعامة؛ فأجب عن الأسئلة بوضوح.

أهيب ببعض التجمعات الطلابية، أو الوظيفية، وببعض المجموعات المتصادقة، أن تجلس مثنى وثلاث ورباع، ثم تتفكر.

وإني منتظر منكم الجواب، والله الموفق للصواب.

العمل والفكر

يستهلُّ فيلسوف الإسلام محمد إقبال كتابه "تجديد الفكر الديني" بعبارة دالة موحية ملهِمة، جاء فيها: "يؤكد القرآن على العمل أكثر من تأكيده على الفكر"؛ أمَّا المجدد محمد فتح الله كولن، فيكتب مقالاً مِفصليا بعنوان: "الحركية والفكر"، يستهله بقوله: "يمكن تلخيص خطَّ كفاحنا كورثةٍ للأرض بكلمتَي الحركية والفكر".

والسؤال هو: لماذا العمل أكثر من الفكر؟ ولماذا الحركية قبل الفكر؟

الحقُّ أنني أطلتُ النظر في السؤال، ولا أستطيع أن أختزل الجواب، ولديَّ مقاربات عديدة، لكنني هذه المرَّة رغبت في إشراك القارئ الحبيب معي، فإليه أوجِّه هذا السؤال؛ لكن فقط أنبه إلى أنَّ المسألة لا تعني "العلم أو العمل"، "الحركية أو الفكر"؛ وإنما هي "و" واو العطف، بكل ما يحمل العطف من دلالة عوض "أو" وهو حرف يفيد الشك والتخيير والإباحة، والتحيير أحيانًا؛ بالحث إذن على الأكثرية والأولوية، وعلى الترتيب وتعليل الترتيب، ولا يكتسي الحوار -البتة- طابعًا إقصائيًّا اختزاليًّا؛ ثمَّ إنَّ المقصد هو إصابة الحقِّ، وعشق العلم، وعزم العمل، والغاية هي نيل رضا الله تعالى بالقلب الخاشع، والعلم النافع، والعمل الرافع.

السؤال مطروح، والإجابة منتظرة، والله الموفق للصواب.

إليك أيها الفطن!

تعرّف القواميس اللغوية "الفطنة" بأنها "الفهم"، وتعرّفها بالنقيض على أنها "ضدَّ الغباوة"؛ لكن التدقيق في الدلالة يُظهر أنّ الفطنة تتجاوز الفهم، وهي أكثر من كونها ضدَّ الغباوة؛ فما الفطنة إذن؟

صاحب "النور الخالد"، صاغ فصلاً بعنوان: "عظمة الفطنة في نبوة محمد ﷺ"، في مستهله يقول: "الفطنة هي تجاوز العقل بالعقل، وهي منطق النبوَّة، وهذا المنطق هو النظر إلى الأشياء والحوادث من خلال منظار قد جمع بين الروح والقلب والحسّ وسائر اللطائف الإنسانية". ثم يضيف "إنَّ الفطنة ليست عقلا ومنطقا جافا فحسب".

وإنها -إذن- الملكةُ الإنسانية حين يغمرها رَوْحٌ من الوحي السماويّ، فتولد من رحمها "الرؤية الشمولية الكلية التوحيدية"، وتتفتق من باطنها "المعقولية" التي تزن كلَّ شيء وكلَّ أمر بـ"ميزان الحق"، لا بـ"وزن الخلق".

فالفطنة حين التعريف، مثل الزمن، كلُّنا يعرفها، وإنَّ من الناس لَمَن يعرفها بنقيضها؛ فالفطِن يدركها ببصيرته، والغبي يعرفها بالتعطُّش إليها؛ لكن يبقى السؤال العميق، للقارئ الصديق، هو:

كيف نربّي أنفسنا -أوَّلاً، والأجيال المنتظَرة ثانيًا، بالفطنة، وفي الفطنة، ومع الفطنة، وعلى الفطنة، وللفطنة؟

لا أرتقب الجواب باللسان، لكنني أرقبه بالجنان والأركان.

باختصار، لا يجيب عن الفطنة إلا الفطن؛ فكلّكم بحول الله ذلك الفطِن.

ظلُّ العمل، وعمل الظلِّ

بات المتأمِّل مقتنعا أنَّ كلَّ علم لا ظلَّ له في الواقع وعلى خطِّ الزمن، ما هو إلاَّ أسلوب من أساليب التهريج والتهييج.. فمثل صاحبه كمثل أحد أبطال "عرائس القراقوز": خواءٌ في الجوهر، ومساحيق على المظهر، وتشدُّق بالكلام بلا طائل؛ ثم إنَّ هذا الصاحب لا يملك حركته، بل هي رهينة اليد التي تتوغَّل في أحشائه؛ سواء أكانت تلك اليد يد شيطان، أم يد إنسان.

ولقد بات المتأمِّل، مرَّة أخرى، على يقين تامٍّ، لا تشوبه شائبة، أنَّ كلَّ عمل يزهو بنفسه، ويبحث عن الأضواء الكاشفة، فيقدِّم طلب المحمدة وشكرَ الناس والأجرة العاجلة، على الحمد وشكر الخالق والأجر من الله؛ مثل هذا العمل، ومثل ذلكم العامل، لا خير فيه، ولا رجاء من بابه؛ فهو مثل "الموبتشو" -لمن يشاهده- وهو مهرِّج، بهلوان، يوظِّف ظاهره بمهارة، قصد إثارة الضجيج والضحك لدى الناس؛ ولا يهمُّ مع ذلك أكان ما خفي منه حقًّا أم باطلاً، صوابًا أم خطأً... المقصد هو الآخَر، لا غير.

فنموذج الرشد، ونموذج الفعالية، يقوم على صورة متكاملة متكاثفة، بين العلم والعمل، إنها صورة "ظلِّ العمل، وعمل الظلِّ".

فلينظر كلٌّ منا في كلية الصورة، ولنحذر التنميط، والتسطيح... وليكن الله تعالى هو مبتغانا ورجاءنا، ولنردد موقنين نداء عباد الله المؤمنين: ﴿حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ﴾(التوبة:٥٩).

الفكرة الخاطئة، والفعل الخاطئ

إذا لحق الخطأ عملاً أو مشروعًا، فإنما يأتيه من باب "الفكرة"، أو من نافذة "الفعل"؛ ولقد نبَّه محمد إقبال إلى أنَّ "الفكرة الخاطئة تشوّش الفهم، أمَّا الفعل الخاطئ فإنَّه يحطُّ من قدر الإنسان ككلٍّ، وربما يقضي نهائيًّا على كيان الذات الإنسانية".. ثم يقرِّر حُكمًا نعرِضه للمناقشة والنقد، فيه يقول: "مجرَّد الإدراك لا يؤثِّر في الحياة إلاَّ تأثيرًا جزئيًّا، أمَّا الفعل فإنَّه ديناميكيٌّ يتعلَّق بالحقيقة، ويصدر عن موقف عامّ ثابت للإنسان ككلٍّ إزاء الحقيقة".

لقد هممتُ أن أنقض حكم إقبال، لولا التريث المنيف، والقراءة المتأنية المستوعبة، وتتبع الدلالات في عمقها، والنظرُ إلى السياق العامّ والخلفية المعرفية لفلسفة إقبال؛ مِن هنا أنبّه إلى أنَّ مناقشة قضايا عميقة من مثل ما طرحتُ من قبل، في النسمات السابقة؛ ومن مثل ما أطرح في هذه النسمة؛ يجب أن يكون ملازمًا للمعاناة، مرافقًا لكدح السؤال والبحث؛ ولا يجوز أن يتلبَّس بلبوس الادعاء، والفوقية، والتخبُّط العشوائي؛ لأنَّه في النهاية "قول" و"فعل" سنسأل عنهما يوم القيامة، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾(الطارق:٩)...

ولا أعني أحدًا ممن علَّق وتفاعل، وإني شاكر لهم ممتنٌّ؛ ولكني أصوغ القواعد والقوانين، وأخاطب قلوبا محبَّة صادقة، وعقولا نابهة فطنة!

أخيرًا، أعود إلى إقبال، وأقول: نعم، إنه يَعتبر الفعل مرحلةً متطوِّرة من الفكر، وهو صادر عن "موقف ثابت إزاء الحقيقة"، أي عن "رؤية كونية"، و"رؤية للعالم"، و"للمعنى"؛ ومن ثم صدق أنَّ "الفعل الخاطئ يحطُّ من قدر الإنسان ككلٍّ، وربما يقضي نهائيا على كيان الذات الإنسانية".

نعم، الفعل ديناميكيٌّ يتعلَّق بالحقيقة... ولذا كان الخطأ فيه مضاعفًا.

المرجعية، والفهم العقلاني، ثم الانقياد

النظام سمة من سمات الحياة البشرية؛ فمِن عادة الناس أن يتَّبعوا نظامًا معيَّنًا، في مختلف جوانب حياتهم: الروحية، والتشريعية، والمادية، والجمالية، والاقتصادية، والسياسية... الخ. من مثل: الدين، والمذهب، والجمعية، والمؤسسة، والهيئة، والحزب... وغيرها.

لكن، يجب أن ننبِّه إلى أنَّ اتباع أيِّ نظام يفترض "الخضوعَ الكامل، والتفهُّم العقلانيَّ، والتحقُّق من المصدر والمرجعية التي يؤسِّس عليها هذا النظام وجوده"؛ ومن حيث الترتيب الإدراكيُّ تأتي المرجعيةُ أولا، ثم الفهم العقلاني ثانيًا، ثم الخضوع الوجداني والفعلي أخيرًا.

فلنقِس الآن حالنا مع أيِّ نظام من الأنظمة التي ألفنا اتِّباعها: هل أعملنا فيها الشروط الثلاثة الآنفة الذكر؟ أي:

- هل تحققنا من مرجعيته؟
- وهل أدركناه إدراكًا عقلانيًّا حصيفًا؟
- ثم، هل خضعنا له خضوعًا كليًّا، وفيًّا، ملتزمًا، صادقًا؟

أجد هذه الثلاثية عجيبة في تفسيرها للكثير من مواقف الناس، المتبعين للكثير من الأنظمة؛ لكنهم عادة لا يخضعون، ولا يلتزمون، بل يبحثون عن الثغرات لينفذوا منها، وعن الفرص ليتملَّصوا من تبعاتهم وجهتها؛ ثم تفشل الأنظمة، وتفشل على إثرها "الكتل البشرية"، ويحلُّ الشك والوهم والتمرُّد، محلَّ اليقين والحقِّ والانضباط؛ فكلُّ بحث عن العمل خارج هذه الدائرة -بغير اتباع لهذه الأسباب، ومن دون مراعاة لهذه الشروط الثلاثة- هو مجرَّد صيد للذباب، وسباحة في التراب، وجحود بيوم الحساب!